بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالةُ الكُبْرىٰ

علمٌ وفنٌّ ومَهارةٌ

كتبه: خالد فتحي خالد الآغا

لا شيء يجلب السعادة للإنسان كما يجلبها إدخال السعادة علىٰ الآخرين. وفي الحديث: أحب الناس إلىٰ الله أنفعهم للناس. ولفظه عام في الناس وعام في النفع[1].

هذا المبدأ باختصار هو المسبارُ الذي تُختَبَرُ به الدعاوىٰ التي لا نهاية لها في عالم الأفكار والمبادئ والقيم، دعاوىٰ الأفراد والجماعات والدول والأمم، فكم منها الذي رفع هذا الشعار، ثم حاكمته الأيام إلىٰ النتائج والآثار!

علىٰ أن هذا الهدف ظل دائما هو الوظيفةَ الأولىٰ لشداة الإصلاح منذ نشأة الخلق، إلا أن الزيف لما كثر في دنيا الناس انضافت إلىٰ وظائف المصلحين وظيفة أخرىٰ هي المحافظة علىٰ سلامة الأصل، وكشف الزيف والبهرج.

ومع أن التفريق بين الأصيل والزائف عمل يسير في ذاته، إذ ليس من الصعب مثلا أن يعرف الإنسان الفارقَ بين الدر والصدف مع اجتماعهما في البياض، أو الفارقَ بين النحاس والذهب مع اتفاقهما في الصفرة، إلا أنّ ما يلابس ذلك من تزييفٍ للوعْيِ هو الذي يُصَعِّبُ علىٰ المصلح وظيفته، خاصة متىٰ أصبح تزييف الوعي علما له أدواتُهُ وفنونه كما نراه اليوم.

---

[1] – هذا الحديث الذي رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر، وصححه الألباني، ينبغي أن يتخذ أصلا في أدب الدعوة إلىٰ الله، فإنه نبه علىٰ معلم من معالم الحضارة الإنسانية الحقة أولا، وشمل أصولا في إقامة المجتمع والتربية المجتمعية، وأصولا في سياسة الناس، كما جاء عموم لفظه شاملا جميع البشر، عاما في المنافع ماديها ومعنويها، ونبه علىٰ الفارق بين النفع العام وإدخال السرور الخاص، وأرشد إلىٰ علوية الغاية بالربط بين مصالح الدنيا والآخرة وجَعْلِ ذلك من التعبد الذي يتقرب العبد به إلىٰ الله، وفيه تنبيه علىٰ أصلٍ انفرد به الإسلام في تجنب الأزمات الاجتماعية قبل وقوعها وتخفيف آثارها بعد الوقوع، وهو ما يمكن تسميته: تدوير المنفعة، كما نبه علىٰ سد الذريعة لحصول الأزمات العامة توصلا إلىٰ منع الأزمات الخاصة، ثم نبه إلىٰ ضرورة رعاية الأخلاق في كل ذلك!، فسبحان من آتىٰ نبينا عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم.

الرسالة الكبرىٰ:

إذا كان الناس يتساوون في الحقوق لتساويهم في الأصل والمشاعر والحاجات الإنسانية – كما يردد دعاة الحقوق الإنسانية – فإن مقتضىٰ ذلك أن توضع خطة شاملة تتحقق بها كرامة الإنسان وسعادته، تراعي تكوينه الفطري، وتتحقق بها المقاصد من وجوده إنسانا، ويتمكن بها من القيام برسالته التي خلق لأجلها في أحسن تقويم، ولا يتأتىٰ ذلك إلا بشروط:

- **أن تراعىٰ في الخطة الغايةَ من وجود الإنسان.**
- **أن تكون مصادرُها المعرفية بالإنسان يقينية الأصول، متينة الأسس.**
- **أن تكون في مأمن من التحيزات التي تؤدي إلىٰ الخلل في التخطيط والنتائج.**
- **أن تكون خطة شاملة للإنسان في كل زمان ومكان.**
- **أن تراعي حاجاته الفطرية الأساسية، فتلبي مطالب الروح والعقل والجسد، فإن أغفلت شيئا من ذلك كانت قاصرة بالقدر الذي أغفلته.**
- **أن تجمع بين صلابة القواعد ومرونة الأداء والتشكيل.**
- **أن تستوعب انتقال الأطوار وتجدد الحاجات.**
- **أن يكون القائم عليها عُلويّ الغاية، مقدما للمصلحة العامة علىٰ مصالحه الخاصة**

هذه الأسس لا تجدها في شيء من الفلسفات والمذاهب التي يدعو الناس إليها، وإن وُجِدَ شيءٌ منها فمختلٌّ الصورة[2]، اللهم إلا في منهج واحد، هو منهج الإسلام، فهو المنهج الذي يتوافر علىٰ هذه الشروط، ومن ثم يمكن القول بأنه المنهج الضامنُ سعادةَ البشرية والإنسان، وليست هذه دعوىٰ كغيرها من الدعاوىٰ، بل هي الحقيقة الدامغة الثابتة بالوحي الذي ريب فيه، فمن كان يؤمن بالكتاب الذي أنزله باري البريات عالم الخفيات فليس بينه وبين مطالعة هذه

---

[2] – اهتم كثير من الفلاسفة بقصة السعادة، وبحثوا في طبيعتها، وفي ارتباطها بالأخلاق، وما إن كانت تحصل بطريق الصدفة، وغير ذلك، ونشأت بسبب ذلك فلسفات علىٰ يد أفلاطون وأرسطو وغيرهم، والوقوف علىٰ جملة مقولاتهم في ذلك يبين قدر الاضطراب الذي عانت منه البشرية في التوصل إلىٰ السعادة الحقة التي جبلت النفوس علىٰ طلبها، لكن الملاحظ أن كلمة السعادة تستعمل في المفهوم الغربي واللغات الأجنبية مرادفة لمعنىٰ الحظ، أما الإسلام فسبق هذه الفلسفات كلها، وجعل مفهومها فوق جميع ما جاءت به.

الحقيقة إلا أن يمسح عن عينيه الغشاوة بالجد في تحصيل علم الكتاب والسنة واستخراج كنوزهما، ومن كان من الذين لما يدخل الإيمان في قلوبهم بعدُ فإن الأدلة العقلية نورٌ هادٍ لمن شاء منهم أن يبصر الطريق.

مراعاة هذه الأسس في ظل ما يُمارَسُ من تزييف للوعي وتغييب للحقيقة عمل يحتاج إلىٰ العلم والحنكة والخبرة، مصحوبا كل ذلك بالحكمة التي تضع القول والفعل في الموقع الملائم له، وبالقدرة علىٰ استثمار هذه الجهود لتحقيق الأهداف، وهذا هو الذي تقتضيه رسالة الدعوة إلىٰ الإسلام بما تتصف به من عالمية وعمق وشمول، وهذا لا يتحقق بدعوة تتعلق بالظاهر وتغفل ما وراءه، أو تجتزئ بالبعض دون الكل ودون مراعاة موقعه من الكل، أو تتساهل في حساب العواقب دون دراسة متأنية للتصرفات وآثارها، أو تهمل استشراف المستقبل لغياب الحقائق الواقعية عن فهمها وحساباتها.

مراعاة هذه الأمور في رسالة الدعوة حتم لازم، وضرورة من الضرورات[3]، إذا أرادت الدعوة أن تقوم بمهمتها ورسالتها الحقة في وراثة النبوة، وفي الحديث: إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء، وفي الحديث الآخر: العلماء ورثة الأنبياء، فالعمل الأكبر لورثة الأنبياء إذن هو سياسة الناس بالدين، والسياسة كلمة تجمع العلم والحكمة والخبرة والدربة والمرونة والصبر والمثابرة، وغير ذلك من المعاني التي يحصل بها المقصود.

وقصارىٰ القول: إن الرسالة الكبرىٰ التي هي الدعوة إلىٰ الإسلام تحتاج إلىٰ اجتماع العلم والفن والمهارة في جميع مراحلها:

- علمٍ يصحح مسيرتها، ويوضح غايتها، ويُلِمُّ بالمواطن الجامعة للإصلاح، ويرسم الاستراتيجيات الكبرىٰ والخطط البديلة، والخطط المستدامة التي تضمن دوام القيام علىٰ هذه الرسالة الخالدة.

---

[3]-الدعوة إلىٰ الله تحتاج إلىٰ حضور القواعد الكلية في ذهن القائم عليها، فتنبغي العناية بتقريب ذلك إلىٰ الدعاة، لتكون حاضرة يمكن الرجوع إليها عند الحاجة، فمنهج الدعوة لا يحتاج إلىٰ قواعد الفقه فحسب، بل إلىٰ قواعد التربية وقواعد الأخلاق وقواعد السياسة وقواعد قراءة التاريخ وقواعد الاعتبار وقواعد استشراف المستقبل، وغير ذلك مما تشتد الحاجة إليه، لأن العلم والعمل بهذه القواعد يعني: تحصيل أفضل ما يمكن من النتائج، بأيسر الطرق وأقل الجهود.

- وفَنٍّ يستثمر المواهب، ويحفز الإبداع، ليجعل من عمل الدعوة رسالةَ جمالٍ تخاطب الروح وتخالط الشعور، لا العقول فحسب.
- ومهارةٍ تستفيد من تجارب السابقين، وتجمعها إلىٰ خبرات الحاضرين، لتجعل من الدعوة نشاطا متجددا يفي بتنوع الحاجات وتطورها المستمر، ويجاري حركةَ الحياة الدؤوبَ فلا يتحيز عنها إلىٰ المستقبل فيعيش في مدينته الفاضلة، ولا يقفل إلىٰ الماضي منقطعا عن الحاضر فلا يزال في تأخر كلما قطعت القافلة منزلا من منازل الطريق. وبالله وحده التوفيق.